وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة القادسية / كلية التربية

البنية الدرامية في المسيرة الحسينية

جدل الزمان وفعل البطولة

الباحثة

أ.م.د.هيام عبدزيد عطية

كلية الآداب / جامعة القادسية

ملخص البحث

واقعة كربلاء _بكل جزئياتها_ دراما واقعية ، تتغلب على كل أشكال الدراما الخيالية التي أبدعتها أقلام كتابها من بلغاء الفن والأدب ؛ لأن ما جرى هناك يحمل سحر التأريخ وهيبة الدين في آن معا ، مع الأخذ بعين النظر إن نهاية الإمام عليه السلام _ رغم كونيتها وعظمتها وفرديتها _ نهاية مأساوية أليمة.

من هنا أصبح من الحتم على الموالين أن يعيدوا صياغة الفجيعة ، واستشعار المعاناة ، فالمسير محاكاة صورية لرحلة السبي ، ومؤازرة متواضعة لركب استشرف التاريخ. تنتقل المسيرة من تشكلاتها الطقوسية والاجتماعية لتدخل في تشكلات قيميّة وجمالية ، حين تعزز الوعي بالعالم وبالآخر ، وحين ترتق فتوق الروح بمشابهة البطل.

Research Summary

The incident of Karbala _pkl Dziyatea_ drama and realistic, to overcome all forms of fictional drama that esteemed writers pens of Blghae art and literature; because what happened there holds the charm of history and prestige of the debt at the same time, taking into consideration that the end of the Imam peace be upon him _ despite the universality and its greatness and individuality _ tragic end painful.

From here it became Alanm loyalists to rewrite bereavement, and sensor suffering, Valmser simulated mock trip to captivity, and support modest rode envisioned history. March passed from Ckladtha ritual and social intervention in formations ad valorem and aesthetic, while promotes awareness of the world and the other, and when live up hernias Spirit Bmchabhh hero.

تمهيد :

الدرامي•، والتاريخي ، والديني مقاربة معرفية :

قيل عن الدراما إنها ((أفضل وسيط للتعبير عن الواقع))[1]، فهي وكما يرى مارتن أسلن ((أوسع شكل عياني نتمكن بواسطته من التفكير بالأوضاع الإنسانية))[2]، وما ذاك إلا لأن الحياة تملؤها التناقضات ، وتتكشف من أحداثها مجموعة صراعات هي لب الوجود الإنساني ، وتلك الصراعات لا تقوم إلا على مبدأ التناقض المرير بين الخير والشر ، اللذان يحملهما الإنسان في داخله .

يعني هذا الأمر أن الدراما ليست رهينة المسرح ، فليس بالضرورة أن يمثل محتواها أشخاص يتقمصون أدوارهم بحرفية عالية ، إنما يعني أنها_أي الدراما_ جزء من الوجود الإنساني وتتحقق في أفعاله اليومية ، التي يصبغها الأسى والحب والغضب والحرب وغيرها ، مما هو تجسيد لكينونته ووجوده . فالإنسان ممثل بدوره ، يؤدي فعله الحقيقي أو المزيف ، ويكشف عن مشاعره وأناه ، أو يحتال فيكشف عن أنوات أخرى وأفعال نقيضة ، وذلك من خلال تقنية القناع الذي يرتديه على خشبة الحياة .

من هنا يمكن القول بإنسانية الدراما وشرعيتها الحياتية ، أو بدرامية الحياة الإنسانية وتراجيدية الصور الواقعية ، فما تلبث المواقف المعيشة أن تستثير مشاعر الأسى واللوعة ، حين تتحطم آمال الإنسان أمام قوى الشر، التي تستأثر بالنعم وتحجبها حيثما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

ولربما يمكن القول بدرامية التاريخ ، بوصفه حياة منقضية ، كانت تحمل متناقضاتها وآلامها في لحظة ما ، لا سيما وأن الدراما هي الفن الوحيد القادر على أن يبقي أحداث التأريخ حية فاعلة ، حين يعيد المرء صياغة تلك الأحداث بشكل سردي ، يحل الكلام فيه محل الحوادث والأفعال والشخوص ، ذلك بأنها تضحى ماثلة أمامنا مثولا أبديا ، فكأنها تجري هنا والآن[3] .

وللدين علاقة بالدراما فهما ((متقاربان كل التقارب ، و جذورهما العامة تكمن في الطقوس الدينية))[4]، إذ ليس من شأن أكبر من شأن الشخصيات التي تنبعث من رؤى ميتافيزيقية ، يحل فيها اللوغوس محل الممارسات الاجتماعية ، ويكون فيها الأبطال معلمين ومبدعين ، يربّون الناس ويضعون قواعد السلوك

والعادات والطقوس ، وتكون سيرهم ملأى بالموضوعات ، التي تفسر نشأة الظواهر الطبيعية المختلفة ومميزات المعارف والمعيشة ، وهؤلاء حين يكملون أعمالهم يرحلون ، وفي بعض المعتقدات فإنهم يتحولون إلى نجوم أو ينداحون في المحيط المتناهي[5].لأن العبّاد كما يرى جيمس فريزر ((لا يستجلبون رضا الرب بالتذلل والاسترحام ، أو بالتسبيح بحمده وتقديم الهدايا والقرابين الغالية الثمينة في معابده ، بقد ما يرضونه عن طريق التطهر والرحمة والإحسان للآخرين ، لأنهم بذلك إنما يحاكون كمال الطبيعة الإلهية ، بقدر ما يسمح لهم به ضعفهم البشري))[6] .

المبحث الأول :

درامية البطولة وبطولة الإمام الحسين :

تلك المواقف لا يمكنها أن تصدر إلا عن بطل يعي فعله وبواعثه وما يترتب عليه ، فأبطال الدراما يحملون خصوصية ما ، تتأتى من حاجة المجتمع لشخصية تحمل سماتهم ، فالبطل ((خلف للروح الذي هو تمثيل لوجدان الجماعة ، يعبر عن وظيفة أكثر مما يعبر عن شخصية ، هذه الوظيفة هي تجديد الحياة في القبيلة بانبعاث شبابها مع الأجيال الجديدة الناشئة ، وتجديد الحياة في الطبيعة كلها ، وعودة الخصب بعد الجفاف واليبس))[7]، وهو بذاك يستأهل الثقة لأن شخصيته مباينة للوعي الجماعي ، الذي خرج منه ، ولولا مفارقته لهذا الوعي لما حاز على سمة الاختلاف النوعي التي جعلته محط النظر ، فهو((رمز لكمال إنساني مناقض لرموز الانحطاط والضياع ، إنه الإنسان الحقيقي الذي يمتلك صفات الحلم ورجاحة العقل والإخلاص والوفاء ، فضلا عن تعامله البطولي مع الزمن ، وهو إنسان يجد نفسه في مواجهة الصعاب ومعالجة الأزمات التاريخية والحضارية بمنهج عقلاني ثوري))[8].

كل ذلك يتحقق في المأساة • أو (التراجيديا) التي تشكل قمة العمل الدرامي ، ذلك بأنها تثير في النفس جملة انفعالات ، لا تخص أبطالها حسب ، إنما تتسع لتشمل ما يطلق عليه بـ(الروح العالمي الشامل)[9] ، فهي إذ تعالج مشكلات أفراد من نوع خاص ، إنما تحاول أن تسمو بالنفس الإنسانية وتطهرها ، فالفعل الأساس فيها يجب أن يكون نبيلا ، فيكون أبطالها على خلق ، يتعرضون لوقائع تثير الخوف والشفقة

، عندما يتحولون من السعادة إلى الشقاء ، بما يرد إليهم من داعية الألم pathos ، أي الفعل الذي يهلك أو يؤلم ، وما إلى ذلك مما تسوقه المصائر ، ويكون مثار الرحمة مثل الموت وقلة الناصر[10] .

على أننا يجب أن ندرك أن البطولة ليست أمرا مستحيلا ولا هي قيمة مخصوصة ، إنما هي مجموعة من المتواليات العقلية والأفعال الجهادية ، التي ينافح فيها البطل ضد نفسه ليكون مختلفا . وبفعل ديمومة العمل وإدمان الحق يتجلى فيه الكمال ، فيكون ((حاملا للتغيير ، تقوم مهمته على إطلاق وتحرير طاقات الحياة ، التي ترفد العالم بما يدعمه ، مما يكبلها ... فالأنا تحرق حتى النهاية ، والجسد يتحرك على الأرض مثل ورقة ميتة في مهب الريح، غير أن النفس تكون قد انحلت في محيط الغبطة))[11].

ولأن شخصية الإمام الحسين شخصية بطولية _بالمعنى الحرفي والفني لهذه الكلمة _ ولأنها تحمل في ذاتها بعدين ؛ تاريخيا متأت من منزلته ومنزلة جده (صلى الله عليه وآله) وأبيه وأهل بيته (عليهم الصلاة والسلام) ، مما كان يعرفه أعداؤه ومحبوه من العرب والعجم ، ومما جهر به وألقاه حجة على خصومه غير مرة[12] ، ولقد روي أنه عليه السلام حين أثخن بالجراح وأخذ يجود بنفسه ((بدر إليه خولي بن يزيد الأصبحي ، ليحتز رأسه ، فأرعد ، فنزل سنان بن أنس النخعي (لع) فضرب بالسيف في حلقه الشريف ، وهو يقول والله إني لأحتز رأسك ، وأعلم أنك ابن رسول الله وخير الناس أما وأبا))[13] .

وبعدا دينيا ، متأت من شهادته في سبيل مبادئ الدين الحنيف، الذي لم يرض لنفسه أن يكون فيه إلا ذبيحا ، يحفظ هيبته وقدسيته ، قال ((ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين ، بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة ، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون ، وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام))[14] . وقال ((خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة ، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب ليوسف ، وخير لي مصرع أنا لاقيه ، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النوواويس وكربلاء ، فيملأن مني أكراشا جوفا ، وأجربة سغبا ، لا محيص عن يوم خط بالقلم ، رضا الله رضانا أهل البيت ، نصبر على بلائه ويوفينا أجر الصابرين))[15] .

أقول من أجل تلك الأمور مجتمعة ، أضحت واقعة كربلاء _بكل جزئياتها_ دراما واقعية ، تتغلب على كل أشكال الدراما الخيالية التي أبدعتها أقلام كتابها من بلغاء الفن والأدب ؛ لأن ما جرى هناك يحمل سحر

التأريخ وهيبة الدين في آن معا ، مع الأخذ بعين النظر إن نهاية الإمام عليه السلام _ رغم كونيتها وعظمتها وفرديتها _ نهاية مأساوية أليمة ، تخلق الحزن وتحقق التطهير catharsis ، الذي هو غاية من غايات الدراما وجزء أصيل فيها ، فقد عدّ ((سببا يُشعر الإنسان بالتسامي ، بعد مشاهدة مأساة عظيمة ، لأننا نرى كائنا إنسانيا متفوقا يواجه محنة وحظا عاثرا مواجهة نبيلة ، تمتاز بالشجاعة والكرامة))[16].

فقد روي عنه ساعة مقتله ((ولما اشتد به الحال رفع طرفه إلى السماء وقال:...صبرا على قضائك يارب لا إله سواك يا غياث المستغيثين ...ثم صاح ابن سعد بالناس : انزلوا إليه وأريحوه ، فبدر إليه الشمر فرفسه برجله ، وجلس على صدره ، وقبض على شيبته المقدسة ، وضربه بالسيف اثنتي عشرة ضربة ، و احتز رأسه المقدس))[17].

المبحث الثاني :

درامية الولاء الحسيني وبطولة المسير:

دعت فاجعة الطف مواليّ الإمام الحسين (عليه السلام) إلى استشعار الذنب ، والإحساس بالفجيعة والعار و إدمان الحزن[18] . وقد تساوى في أزمة الحزن والفجيعة رجلان : رجل سمع واعية[19] الحسين فلم ينصره في حياته ، وتخلف عنه ، فندم ندما شديدا وأخذته الحسرة في الدنيا والآخرة ، ذلك بأنه سُمع الحسين(عليه السلام) يوم عاشوراء يصيح بأعلى صوته ، بعد أن قتل العباس (عليه السلام) ، وظل وحيدا يتلفت فلا يرى أحدا ، وصحبه مجزرين كالأضاحي ، وهو يسمع عويل النساء وصراخ الأطفال ((أما من ناصر ينصرنا ؟ أما من ذاب عن حرم رسول الله يذب عنا ؟ هل من موحد يخاف الله فينا ؟هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا ؟))[20] .

ورجل جاء في زمن آخر، فسمع بالضيم الذي لحق بسبط الرسول وسيد شباب أهل الجنة ، فنادى متألما : يا ليتنا كنا معك سيدي فنفوز فوزا عظيما ، وما ذاك إلا لأن واقعة كربلاء كشفت البؤس النفسي على حقيقته ، ودعت إلى تواتر الكربات وأنواع البلاء ، حين أخذ الإمام يشهد الله على ما فُعل به ، ويلهج داعيا بانتقام منه قريب ((ثم رفع يديه نحو السماء وقال: اللهم احبس عنهم قطر السماء ، وابعث عليهم سنين

كسني يوسف ، وسلط عليهم غلام ثقيف ، يسقيهم كأسا مصبّرة ، فإنهم كذبونا وخذلونا ، وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك المصير))[21].

ولأن الدين كما يرى ميشال ميسلان إجابة عن حاجة نفسية كونية ، فإن أخلاق الواجب تعمل على تحاشي المقت الإلهي ، وتفادي الشعور بالذنب ، ذلك أن الإنسان السعيد يرمي لتأكيد سعادته بخلق حقه فيها ، قياسا على أنه في حاجة للاقتناع بأنه يستحقها[22] . فحين نتنازل عن مؤازرة البطل أو نجهل قيمته ، فذاك يعني تردي البعد الروحي الذي يفتح منافذ المعرفة ، ويجعلنا نعمه في طغيان التدني الوجداني ، والإسفاف العقلي . وأن نجهل البطل أو نخذله فذاك لأننا نجهل ذواتنا ونخذل ديمومتنا ، التي هي رهينة الكشف الروحي وانفتاح الرؤى ، فالبطل رمز ((لتلك الصورة الإلهية الخلاقة والمخلصة ، التي هي مخبأة فينا جميعا ، وتنتظر فقط أن تعرف وتستحضر في الحياة))[23].

ولأن الإمام الحسين في هذه الدراما الكونية والحياتية هو البطل ، والبطل في الدراما يتعرض لحظ عاثر ، فان عيون النظارة تتوجه إليه بالحسرة والأسف ، كما تطلبه حثيثا بالولاء والتبعية ، فالولاء ((هو الإرادة ، أو الرغبة في إظهار الأبدي ، قدر الإمكان ، أي الوحدة الواعية الشاملة والمطلقة للحياة ، في صورة أفعال ، يقوم بها إنسان أو ذات فردية))[24] ، أو هو ((إرادة الاعتقاد في شيء أبدي ، والتعبير عن هذا الاعتقاد في الحياة العملية لكائن إنساني))[25].

إن هذا التعبير عن الاعتقاد يتجلى عند موالي الإمام الحسين في أمور، يعبر عنها بالطقوس العاشورائية ، وهي مجموعة من الممارسات تجدد الالتزام بمحبته وخدمته ومعاداة أعدائه ، أقلها البكاء واللطم ، وأشدها شج الرؤوس وجلد الأجساد ، انطلاقا من مسوغات تاريخية وروحية يتوسل بها المحبون للتخفيف من الإحساس بالذنب ، وللتشبه ببطلهم في لحظات صراعه مع الظَلَمة وقوى الشر ، فهم يتخيلون أن ما وقع للحسين يمكن أن يقع لهم ، ولقد أثبت علماء النفس أن الألم الذي ينشأ في النفس يسقط على الجسد عن طريق الاستبدال ، وأن الخيار الصحي للحزن يتم بالإدماج ، الذي نسترشد به بوصفه جزءا من نفسنا يحل محل ما فقدناه ، فبه نحافظ على الموضوع حيا في الأنا للتعويض عن اللذة المفقودة[26] .

ولا يعني هذا _بأي حال من الأحوال _ تعارضا بين ذاك الإحساس وبين ما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) حيث قال في دعاء له ((اغفر لي و لإخواني و زوار قبر أبي عبد الله الحسين بن علي ع الذين أنفقوا أموالهم و أشخصوا أبدانهم رغبة في برنا و رجاء لما عندك في صلتنا و سرورا أدخلوه على نبيك محمد ص و إجابة منهم لأمرنا و غيظا أدخلوه على عدونا أرادوا بذلك رضوانك فكافهم عنا بالرضوان و اكلأهم بالليل و النهار و اخلف على أهاليهم و أولادهم الذين خلفوا بأحسن الخلف و أصحبهم و اكفهم شر كل جبار عنيد و كل ضعيف من خلقك و شديد و شر شياطين الإنس و الجن و أعطهم أفضل ما أملوا منك في غربتهم عن أوطانهم و ما آثروا على أبنائهم و أبدانهم و أهاليهم و قراباتهم اللهم إن أعداءنا أعابوا عليهم خروجهم فلم ينههم ذلك عن النهوض و الشخوص إلينا خلافا عليهم فارحم تلك الوجوه التي غيرتها الشمس و ارحم تلك الخدود التي تقلبت على قبر أبي عبد الله الحسين ع))[27] ، إذ ينبغي أن تكون تلك الممارسات على حد قول الإمام متحصلة من خلفية العارف بحق الحسين ، الذي يوالي رغبة في رضوان الله سبحانه ، وصلة بأهل بيت نبيه . نعم إن الأمر كذلك فيما يترتب على الولاء من مقاصد ، وما يلحق الإيمان بالله من سلوكيات وممارسات ، بيد أن تلك المعرفة والرغبة في الرضوان لا تلغيان حقيقة إحساس الموالي بخصوصية العلاقة بينه وبين الإمام ، بوصف الحسين (عليه السلام) إنسانا فذا ، يشبهه في إنسانيته بعيدا عن الدين ومقاصد الشرع . فقد ارتبط الموالون بالإمام عاطفيا ، وتعلقوا به شغفا ، من دون النظر إلى تبعات المكسب . وقد تساوى في ذلك العربي والأعجمي والمسلم والهندوسي ، وغيرهم من الديانات والملل الأخرى ، ممن لا يرجون رضوان الله ولا يبغون إدخال السرور على النبي (صلى الله عليه وآله) ولا يرمون صلة أهل البيت ، بل إنهم لا يعرفونهم أصلا ، ما يدعونا إلى القول بإنسانية الولاء الحسيني وكونيته ، وما يدعونا إلى التيقن من كون الإمام بطلا يجسد آمال وآلام البشر جميعا . وعليه فإن دعاء الإمام الصادق (عليه السلام) كان خاصا لمن ربط بين تضحية الإمام والعلاقة مع الله سبحانه نتيجة ومقصدا ، ولمن تسلسل الحب والولاء لديه إلى ولد الحسين من بعده ، مما خصه الإمام الصادق متوجها إلى الله سبحانه بقوله (لنا) ((ارحم تلك العيون التي جرت دموعها رحمة لنا ، و ارحم تلك القلوب التي جزعت و احترقت لنا ، و ارحم تلك الصرخة التي كانت لنا ، اللهم إني أستودعك تلك الأنفس و تلك الأبدان حتى ترويهم من الحوض يوم العطش))[28] ، وعليه فإن درامية البطولة المقصودة هنا تتجاوز العلاقة المخصوصة في حديث الإمام الصادق (عليه السلام) ، لتتوغل في الفعل الإنساني البشري ، وما يشير إليه وما يتركه من فجيعة وألم في الإنسانية جمعاء.

وهكذا فإن التطهير _الذي يعتنقه مريدو الإمام الحسين ومحبوه_ ليس التخفف من مشاعر الخوف والشفقة ، بل هو كشف العورة النفسية والخلة الروحية ، عن طريق نقل الفاجعة من موضع الكمون التاريخي إلى موضع الممارسة السلوكية ، وذلك من خلال تأنيب الضمير ، الذي يعمل جاهدا على جلد الذات والنيل منها، وديمومة العض على الأصابع للتفريط في جنب الله حين فُرِّط بـ(سيد شباب أهل الجنة) . فالمرء إذ يمارس الحزن ، إنما يمارس إنكار الذات وتبعيتها للبطل المنتهك ؛ من أجل إثبات التزامه الأخلاقي ؛ لأن ((ضمير كل فرد ، وعمله الأساس ، بلا شك ، توجيه هذا الفرد ، لكي يجد مكانه المتفرد في النظام الأخلاقي الكلي العاقل))[29].

وفي طقوس عاشوراء يزداد الأمر صعوبة ، فالبطل (الحسين) يتشظى ليتولد منه ركب جديد من الأبطال ، فالموت هنا انبعاث للحياة وللذات الحرة والإنسان الذي يمثل رمزا للفضائل ((فحينما تطبق الضرورة على حريته ، وتشل الحاجة إرادته ، وتختنق في فمه الكلمات ، فإن الموت كما قال كريكجارد : لا بد وأن يجيء ليفتح لنا النافذة))[30] .

وقد زاد ركب السبايا في درامية الفاجعة ، حين انبعث البطل مرة أخرى في أهل بيته ولا سيما في ولده زين العابدين (عليه السلام) ، وحين أُخذت النساء والأطفال ، أسارى ((قد هتكت ستورهن ، وأبديت وجوههن ، تحدوا بهن الأعداء من بلد إلى بلد ، يستشرفهن أهل المناهل والمناقل ، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد والدني والشريف ، ليس معهن من رجالهن ولي ، ولا من حماتهن حمي))[31]، فهؤلاء الأبطال لم يقضوا نحبهم ولا أفل نجمهم بنهاية البطل ، إنما امتد بهم الزمن لينالوا من الشقاء قسطا بالغ الضراوة ، وأقله مسيرهم من كربلاء إلى الكوفة ومن ثم صوب دمشق ، وبالعكس .

من هنا أصبح من الحتم على الموالين أن يعيدوا صياغة الفجيعة ، واستشعار المعاناة ، فالمسير محاكاة صورية لرحلة السبي ، ومؤازرة متواضعة لركب استشرف التاريخ ، حين قالت بطلته زينب (عليه السلام) ليزيد ((فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولاتميت وحينا ، ولاتدرك أمدنا ولا ترحض عنك عارها ولا شنارها ، وهل رأيك ألا فند وأيامك إلا عدد ، وجمعك إلا بدد ، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين))[32]. فهم بالمسير يصدّقون نبوءة البطلة ، ويستجيبون لدعواها في إبقاء ذكر أهل

بيتها عالقا بالتاريخ ، وتشويه صورة المعتدي والظالم ، الذي يتكرر في كل وقت وزمان ، وتلك أبسط شروط الولاء.

يرى لاكان ((أن الصحة العقلية لا ترتقي من خلال إبراز الأنا ، بل من خلال عرض تخليها وقبول محتواها كذات))[33] ، فلكي يتحقق الولاء فإنه يحتاج إلى التضحية والعمل الشاق المؤلم والشعور بمرارة الهزيمة ، فالقضية التي تخسر تاريخيا ، هي أكثر القضايا خصوبة وحياة ، و بها تتحول قضايانا التي تتغذى على النكبة والبؤس إلى مثل عليا ، فالمرء وبمجرد امتلاكه الولاء يشعر انه حل لنفسه مشكلته الشخصية المتمثلة بوجوده والغاية من حياته . إن الولاء ليس مرشدا في الحياة ، إنما هو كشف عن علاقتنا بالعالم ، فهو عالم ابدي ووحدة شاملة لكل حياة روحية[34] .

والسائرون في درب كربلاء يعملون على ترميز ظاهرة المسير ، بإرساء الروابط الاجتماعية فيما بينهم ، وبالتعبير بشكل أوسع عن العلاقة التي تربطهم بالكون . فالرمز يبقي على الفكرة ناشطة ومنيعة وحية إلى ما لا نهاية ، فحين تكون الظاهرة مرئية ، فإنها ستتحول إلى مفهوم يبقى محددا بالصورة التي تدرك بشكل كلي[35] .

وينبغي التأكيد هنا على أن الإمام الحسين يُؤثِّر– بوصفه مثلا أعلى أو أنا مثاليا– في تحقيق الذات الاجتماعية والصحة النفسية ، لأفراد الطبقات الاجتماعية الموالية ، وحيثما لم يكن المثل الأعلى ((ملصقا كجسم أجنبي ولا يعمل بمثابة أنا مثالي تسلطي ، بل يعمل في اتجاه مثل أعلى للانا الجماعي ، فقد أطلق غرائز ورغبات جبارة حقا من أجل صراع الطبقات))[36]، وفي مجرى الحدث الدرامي التراجيدي فإن الشعبي يأخذ مكان الصدارة في بعض الأحداث التراجيدية ، كونه حاملا وممثلا لكل جوهري ، يسمو فوق الأهداف الخاصة والمصالح الأنانية للشخصيات الأخرى[37] .

وليس هذا حسب إنما يأتي فعل المسير بوصفه إعلاء للذات الدنيا ، و تمثيلا للأنا غير الفاعلة اجتماعيا ، التي تؤدي فعلا بطلا تتغلب فيه على قدرات جسدها القاصر ، محدود الطاقة ، وعلى إمكاناتها النفسية غير المتوافقة ، وإنه يؤكد على حيوية الدارج والشعبي ، حين يجري مجرى الاستعارة التي تنبئ عن

((حاجة الروح والنفس إلى عدم الاكتفاء بالبسيط ، بالمعتاد ، بالعادي ، والارتفاع والتسامي طلبا لمزيد من العمق ، و إلى التوقف عند الفروق ، وعلى توحيد ما هو منفصل))[38] .

إن المسيرة استعارة كبرى ، تتغلب على التعبيرات الدارجة ، وتظهر قوة ملموسة تعلو على كل أنماط السلوك العاطفية العابرة ، فثمة استعارات تكون جزءا من حياتنا تعبر عن ذواتنا وشخصياتنا وتنسجم مع رؤيتنا للعالم . وهي بدروها طقوس نسقية غير عشوائية تنعكس فيها تصوراتنا الضمنية بطريقة شعورية أو تلقائية ، فالطقس مظهر موحد وتكراري من مظاهر تجربتنا المنسجمة ، وفي إنجازه نعطي لأنشطتنا بنية ودلالة ، ونقلص بذلك من التشويش والتباين في أعمالنا . وهو بعد يبنين تجربتنا الجمالية حين يبنين كل المظاهر الحسية من صوت ولون وهيأة ، وهو بذلك يزودنا بانسجامات جديدة ، عقلائية وخيالية ، تنتمي لعاداتنا الإدراكية وفكرنا ، وتدعونا إلى ابتكار حقائق جديدة هي إلى الفن أقرب[39] .

من أجل هذا تنتقل المسيرة من تشكلاتها الطقوسية والاجتماعية ، لتدخل في تشكلات قيميّة وجمالية ، حين تعزز الوعي بالعالم وبالآخر ، وحين ترتق فتوق الروح بمشابهة البطل ، وحين يتغلب فيها الفرد على ذاته بكشف أدرانها وفوضويتها ، ومحاولة ترويضها لتتناسب مع عالم مثالي ، تدان فيه الأنا ، ولا يبحث لنقائصها عن مسوغات .

إن المسيرة فعل مكاشفة ومحاجّة مع النفس والتأريخ ، وهي فعل تغيير للذات من أجل تغيير المجتمع ، الذي يضع يده فيها على القرحة فينكأها ، ويعتبر بالعبر التي حرمته من الكمال والديمومة ، ومن هنا يحقق الفرد لنفسه فعل البطولة المرغوب . فغياب البطل وخسرانه دعوة مفتوحة للحلول مكانه وأخذ موقعه التاريخي والكوني ، وموت البطل يعني بطريقة أخرى بقاء البطولة شاغرة ، تطلب من يشغلها .فالمسيرة طريق للهداية ، وتجلٍ من تجليات الفعل البطولي ، أو لنقل إنها سُلمة في سبيل تحقيق الخلود المنشود ، وقد قال عزّ من قال : **((إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ))**[40].

الهوامش

•) البحث تتمة لفكرة وردت بصفة جزئية ضمن بحثنا (الحسين في الشعر العراقي الحديث) المنشور في : مجلة القادسية للعلوم الإنسانية ، ع/3، مج/7 ، 2004 ، مما له بعد إنساني في الطقوس العاشورائية ، ولا سيما في المسيرة الأربعينية .

[1]) في الشعر والنثر ، د.حسن محسن :67.

[2]) تشريح الدراما ، مارتن أسلن ، تر:عبد المسيح ثروة : 19.

[3]) ينظر : نفسه : 65.

[4]) نفسه : 26.

[5]) ينظر : الوعي والفن ، غريغوري غاتشف ، تر : د. نوفل نيوف ، مراجعة د. سعد مصلوح : 48-49.

[6]) الغصن الذهبي ، دراسة في السحر والدين ، سير جيمس فريزر ، تر: بإشراف : أحمد أبو زيد : 219/1.

[7]) البطل في الأدب والأساطير ، محمد شكري عياد : 24_25.

[8]) تأملات في تفسير التاريخ ،علي خيون :43.

•) تحفظنا في بحثنا السابق من إطلاق لفظة مأساة على قصة الإمام الحسين لأسباب : الأول : يشكل صفة لكل بطل درامي ليس هناك من يشبهه في الحياة، ذلك بأن أولئك الأبطال يفكرون في الأشياء التي لا نفكر بها ، ويفعلون الأشياء التي لا نستطيع فعلها . والآخر متعلق بأفعال أبطال التراجيديا غير الحقيقية أو شبه المستحيلة ، التي لا تكاد تحصل في الواقع ، وهي قائمة على تحليلات أرسطو عن الهاماراتيا ، التي ليست جريمة لكنها أيضا ليست خطأ غير إرادي ، فالبطل ليس ضحية للقدر والمصادفة . وعلى تحليلات فرويد في أن الصراع في نفس البطل يدور بين واجب أخلاقي ثقيل وبين نزعة أصيلة للاتصال الجنسي المحرم ، الأمر الذي يجلّ الإمام الحسين أن يكونه .ينظر : الحسين (ع) في الشعر العراقي الحديث ، هيام عبدزيد ، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية ،ع/3، مج/7 ، 2004 :107، 117.وينظر مصدرنا : البطل في الأدب والأساطير :20_49 .

[9]) ينظر : ثقافتنا بين الأصالة والمعاصرة ، علي عشري زايد : 181 .

[10]) ينظر : النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال :74_80.

[11]) البطل بألف وجه ، جوزيف كامبل ، تر : حسن صقر : 357 .

[12]) اللهوف على قتلى الطفوف ، السيد بن طاووس : 53 .

[13]) نفسه : 74.

[14]) مقتل الحسين : 207.

[15]) اللهوف على قتلى الطفوف : 38.

[16]) تشريح الدراما : 72 .

[17]) مقتل الحسين : 284.

[18]) ورد في الزيارة الناحية ((لأندبنك صباحا ومساء ولأبكين عليك بدل الدموع دما)) .

[19]) مما روي عنه عليه السلام أنه طلب نصرة عبد الله بن الحر الجعفي بيد أنه خذله كراهة الموت ، وقدم فرسه (الملحفة) عطية للإمام لتعينه في الحرب ، فرفض الأمام وقال : أما إذا رغبت بنفسك عنا فلا حاجة لنا في فرسك ولا فيك ، وما كنت متخذ المضلين عضدا ، وإني أنصحك كما نصحتني ، إن استطعت إن لا تسمع صراخنا ولا تشهد وقعتنا فافعل ، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ولا ينصرنا ، إلا أكبه الله في نار جهنم . مقتل الحسين ، عبد الرزاق المقرّم : 189_190.

[20]) نفسه : 271.

[21]) اللهوف على قتلى الطفوف : 56.

[22]) علم الأديان مساهمة في التأسيس ، ميشال ميسلان ، تر : عز الدين عناية : 111 .

[23]) البطل بألف وجه: 48.

[24]) فلسفة الولاء : 189 .

[25]) نفسه : 190

[26]) ينظر : الأدب والتحليل النفسي ، رث باركن غونبيلاس ، تر : حنا عبود : 243_ 264 .

[27]) الكافي ، الكليني : 582/4.

[28]) نفسه :583/4.

[29]) نفسه : 187 _188.وحياة

[30]) ثقافتنا بين الأصالة والمعاصرة :177_178.

[31]) اللهوف : 106 .

[32]) نفسه : 107 .

[33]) الأدب والتحليل النفسي : 32.

[34]) ينظر : فلسفة الولاء : 200

[35]) ينظر : علم الأديان : 247_248.

[36]) النشاط الجنسي وصراع الطبقات ، ريموت رايش ، تر : محمد عيتاني : 206 .

[37]) ينظر : موسوعة نظرية الأدب ، إضاءة تاريخية على قضايا الشكل ، القسم الرابع (الدراما) ، م.س.كوكينيان ، تر : جميل نصيف التكريتي : 198.

[38]) الفن الرمزي ، هيغل ، تر: جورج طرابيشي : 156 .

[39]) ينظر : الاستعارات التي نحيا بها ، جورج لايكوف ومارك جونسن ، تر : عبد المجيد جحفة : 218_220.

[40]) الرعد : 11.

@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@@

روافد البحث :

- القرآن الكريم .
- الأدب والتحليل النفسي ، رث باركن غونبيلاس ، تر : حنا عبود ، منشورات وزارة الثقافة ، سورية ، 2006.
- الاستعارات التي نحيا بها ، جورج لايكوف ومارك جونسن ، تر : عبد المجيد جحفة ، دار توبيقال للنشر ، ط2 ، 2009.
- البطل بألف وجه ، البطل في الأساطير والأديان والحكايات الشعبية والتحليل النفسي والأدب ، جوزيف كامبل ، تر : حسن صقر ، دار الكلمة ودار الشفيق ، سوريا ، ط1 ، 2003.
- البطل في الأدب والأساطير ، محمد شكري عياد ، دار المعرفة ، ط1، 1959.
- تأملات في تفسير التاريخ ،علي خيون ، دار الحرية ، بغداد ،1980 .
- تشريح الدراما ، مارتن أسلن ، تر:عبد المسيح ثروة ، منشورات وزارة الثقافة ، بغداد ، ط1، 1978.
- ثقافتنا بين الأصالة والمعاصرة ، علي عشري زايد ، الهيأة المصرية للطباعة والنشر ، ط1، 1971.
- علم الأديان مساهمة في التأسيس ، ميشال ميسلان ، تر : د. عز الدين عناية ، دار الكلمة والمركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط1، 2009 .
- الغصن الذهبي ، دراسة في السحر والدين ، سير جيمس فريزر ، تر: أحمد أبو زيد وآخرين ، الهيأة المصرية العامة ، 1971 .
- فلسفة الولاء ، جوزايا رويس ، تر: أحمد الأنصاري ، مر: حسن حنفي ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2002.
- الفن الرمزي ، هيغل ، تر: جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط1 ، 1979.
- في الشعر والنثر ، د. حسن محسن ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ط1، 1979.
- الكافي ، لثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني (ت329هـ) ، دار المرتضى ، بيروت ، 2005.
- مجلة القادسية للعلوم الإنسانية ،ع/3، مج/7 ، 2004
- مقتل الحسين عليه السلام ، المسمى اللهوف على قتلى الطفوف ، السيد علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس ت(664هـ) ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط1 ،1993.
- مقتل الحسين أو حديث كربلاء ، العلامة عبد الرزاق الموسوي المقرّم ، منشورات الشريف الرضي ، د.ط ، د.ت.

- موسوعة نظرية الأدب ، إضاءة تاريخية على قضايا الشكل ، القسم الرابع (الدراما) ، م.س.كوكينيان ، تر : جميل نصيف التكريتي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1986.
- النشاط الجنسي وصراع الطبقات ، ريموت رايش ، تر : محمد عيتاني ، دار الآداب ، بيروت ، ط1 ، 1971.
- النقد الأدبي الحديث ، د . محمد غنيمي هلال ، دار العودة بيروت ، 1973 .
- الوعي والفن ، غريغوري غاتشف ، تر : د. نوفل نيوف ، مراجعة د. سعد مصلوح ، سلسلة عالم المعرفة ، مطابع السياسة ، الكويت ، 1990.